بايرون في "سنترا"

قصة بقلم ايفو اندريتش
ترجمة رائدة ادريس

حين وصل بايرون الى « سنترا »، حصلت مناقشة حادّة بينه وبين أصدقائه. لم يصلوا الى اتفاق حول الطريق الذي يجب ان يسلكوه في العودة. وكان ما يغضبه خاصة ان يقرأ في عيون خدمه أنهم كانوا، كالعادة، من رأي معارضيه.

وقد انفصل عن اصدقائه حين عبروا حاجز البستان. كان اليوم يوم أحد. كانت الموسيقى تسمع من بعيد. ولكي يزيل غضبه، كان يصعد السلم ركضاً، مجرجراً ساقه القصيرة العرجاء، ناسياً انه كان مضحكاً حين يركض.

وكانت تنفتح امامه بلا انقطاع شرفات جديدة وطرق جديدة ومنظر يزداد رحابة: اثنا عشر ميلاً من سهل أخضر يكتنفه البحر والسماء اللامتناهية. لم يكن يحسّ بالجهد. كان لديه إحساس بأنه يكبر، لا بأنه يصعد. لم يكن ثمة كائن حيّ. حتى ولا عصفور. كان يقول في نفسه: ها هو ذا أخيراً بلد الوحدة فيه مفرحة!

وفيما هو مسرع في تلك الممرات المشقوقة بين الأسوار، وتحت ناظريه حدائق بعيدة والبحر يزداد رحابة وبعداً، التقى فجأة بفتاة يصعب تحديد سنّها. كانت واقفة عند طرق الأسوار، قرب مرقب. كانت قد انبثقت أمامه فجأة، كما لو انها أُرسلت لتحمل اليه رسالة. كانت ترتدي ثوباً نظيفاً من كتّان أبيض، وكان لها وجه أسمر يحمل طابعاً افريقياً غامضاً. وأنف صغير ذو منخرين عريضين، علامة الصدق، وعينان ذكيتان تفيضان صحّة وبهجة.

حيّت الغريب بكلمات غير مفهومة، بصوت منخفض وهيئة متواضعة، ولكن كان في صوتها وفي حركاتها شيء ما هو أكثر من تحية بسيطة. كانت تتأرجح ببطء وتنظر في عينيه مبتسمة، وهي تمرّر لسانها على شفتيها الجافتين. ما من شيء أكثر إثارة وأدعى إلى الاضطراب من شفاه هؤلاء البرتغاليات! إنّ لها ما هو نباتيّ ومعدنيّ في الوقت نفسه. كانت هاتان الشفتان غريبتين كثمرتين متفجّرتين، تكشفان عن أيّ دم حارّ وداكن وعذب صنع منه داخل ذلك الجسم الرقيق الناضج. غير أنهما، عند الأطراف فقط، مُنمذجتان كشفاه النساء القوقازيات الجنس، ولكن زاويتيهما تضيعان هناك في ظلّ حائر، كتجويف ورقة.

كان يقول في نفسه: لا بد أني أبدو بالمظهر المضحك المرتبك

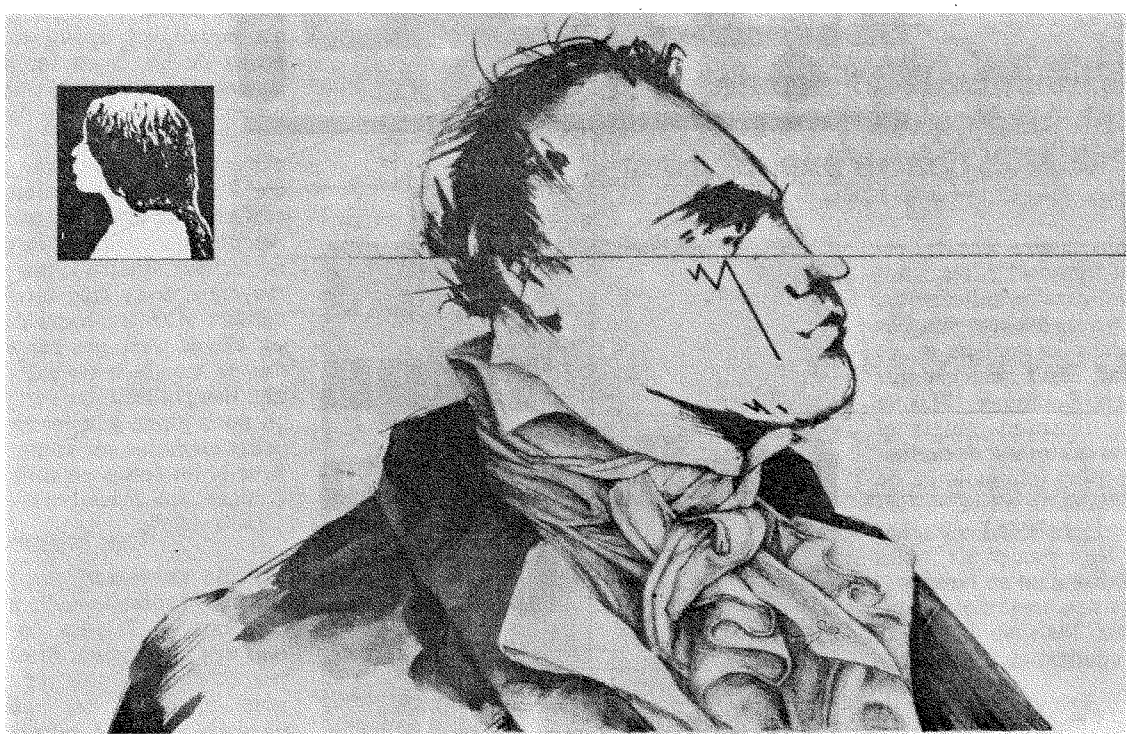

لشخص لا يعرف ماذا يريد. وبكل قواه، كان يحاول ان يبدو متجرّداً وطبيعياً. بكل قواه، بمقدار ما كان يستطيع التصرّف بها. ذلك انه كان، في داخله، يشتعل اشتعالاً. كان يخيّل اليه ان كل ما كان كيانه يبحث عنه ابداً، بل أكثر من ذلك، موجود الآن على هذه الرابية المخضوضرة. كما لو أن الشر المجهول الذي كان قد طرده من انكلترا وكان يجبره على التطواف في العالم قد قاده عمداً إلى هذا المكان.

وفوق هوّة مزدوجة، هوّة الجدران الرمادية والمنحدرات المخضوضرة. والهوة الأخرى المصنوعة من كل ما هو غير مسموح به وغير ممكن، وهو ما كان متعطشاً اليه ابداً، كان خياله المستثار بهيئة هذه المرأة وقربها، يطير بسرعة مدوّخة. وكما أنّ الجمرة التي يتركها الراعي تحدث حريقاً في الغابة، فان هذه المخلوقة الدقيقة كانت تشعل في بايرون رؤى ساطعة كان يجد فيها، لأول مرة، كل ما تعد به الأحلام، وما لا تمنحه النساء ابداً وما تنتزعه منا الحياة بلا انقطاع. كان ذلك كلّه الآن يغلي في أعماقه، محمولاً بدفق دمه. ولكنه كان، في اللحظة التالية، يطفيء كل رغبة، ويُدرج هذه المخلوقة الحيّة الباسمة في فكرة جديدة مشعّة، وكانت هذه الفكرة تملأه بطهارة هائلة، وبمفاجأة، وباحترام لا حدود له لهذا الكائن الإنساني المقدّس فوق كل شيء.

* * *

طوال هذا الوقت، كان يراوح مكانه اويدور ببطء حول الفتاة التي كانت تستدير لكي تواجهه، من غير أن تفارق نظره، وهي تراقب كل حركة من حركاته. وكان بايرون يتمتم مقاطع غير منسجمة. وكان يخيَّل إليه أنها هي أيضاً كانت تقول شيئاً. هكذا كانا يتبادلان النظر، ويدور أحدهما حول الآخر كحيوانين أشقرين، أحدهما كبير والآخر صغير، يشمُّ أحدهما الآخر ويراقبه قبل أن يبدأ اللعبة الغريبة التي يتداعبان فيها آناً ويمزّق أحدهما صاحبه آناً آخر.

كان كالمسحور، وكانت جميع حواسّه تعمل بقوة وبراعة متزايدين. كان يرى بياض عينيها الشديد الوضوح، كما هو الشأن لدى النساء البدائيات الصغيرات السنّ، وحدقتيها المضيئتين اللتين تبدوان كأنها من زبرجد. وكان يلتقط بدقّة رائحة جسمها الأسمر وشعرها الجاف وعطر نسيج ثوبها الذي بيّضته الشمس. لكأنه كان يتكاثر ويتضاعف، وكان بكل حاسّة من حواسه حياتها الخاصة التي تبلغ من الكثافة أنها كانت في الوقت نفسه اغناءً له وموتاً له بصفته كائناً. كان يعلم الآن ما عساه تكون لحظة النشوة والنسيان! إن مثل هذه اللحظات، في الجحيم الذي يعيشه جميع الشهوانيين، هي واحات نادرة لا توقّف فيها ولا راحة.

في تلك اللحظة، سمع بايرون أصواتاً آتيه من الأدغال السمراء التي كان يضيع فيها الدرب. انتفض كما لو أن أحداً أيقظه، فتابع سيره المقطوع في الممر الوعر، تاركاً الفتاة مندهشة، حتى دون أن يحييها.

وتاه طويلاً في الدروب الضيقة والمنحدرات. وأخيراً أعادته الممرات ووالمنحدر القوي من تلقاء نفسها أمام قصر الضواحي الذي كان قد أنطلق منه. وكان أصدقاؤه جالسين على مقاعد من حجر، ينتظرونه.

وعادوا إلى لشبونة بالطريق نفسها. وكان هذا ما اقترحه أصدقاؤه، وهو ما كان، منذ حين قد أزعجه جداً. ولم يعترض ،هذه المرة. كان في مثل وداعة الحَمَل، ممتلئاً بمودّة رقيقه، ليس فقط تجاه الناس، بل تجاه الأشياء كذلك.

عاش الأيام التالية في أهدأ وأجمل حلم في حياته كلها. وكنّ على خطأ، بائعات السمك اللشبونيات ذوات الأقدام العارية، تلك اللواتي كن ينظرن إليه وهو يتكلم وحده على شاطيء البحر، فيتدافعن بالمرافق ضاحكات ويعتبرنه مجنوناً... إنه لم يكن وحده، ولم يكن يتكلم مع أشباح. كان يتكلم مع كائن بشري يعيش في «سنترا»، له دمه الخاص، وقلب وعينان، وبالتأكيد أهلٌ وبيت واسم. لكن هذا أقل أهمية. وفكر بأن يسميه باسم ثمرة أو معدن، ولكنه عدل عن ذلك، لأنه خيّل إليه أنه بهذا ينتقص منه أو يحدّه. ثم اعتاد أن يسمّيها، في فكره، «المخلوقة الصغيرة»، ولكنه لم يكن يقول ذلك كما تقال الكلمات. كان ذلك فقط نَفَساً قصيراً، خلف شفتيه المغلقتين، بالكاد يمسُّ الحلق، وهو مع ذلك كافٍ لابتعاث صورتها كلّها. وكان بايرون يُمسك به في حلقه بشدّة، ويحتفظ به في ذاته كأنه شهوة.

* * *

بعد زمن قصير، غادر لشبونه ثم البرتغال. وفي طوافه ببلاد أخرى، وحديثه مع الرجال، ومزاحه مع النساء، كان يحتفظ بسرّه بعناية، فخفياً إياه تحت الكلمات، والأشياء والأشكال، وكان يستطيع أن يتمتع به من غير أن يخون نفسه أبداً. كان يربطه بالتداعي ببعض الكلمات، وكلما كان ينطق بها أحد أمامه، كان يستطيع، بلا علم أحد، أن يتمتع بحضورها من غير ازعاج. وكان في توقيعه إشارة صغيرة لا تكاد تُرى كانت تعني امرأة مرتفعات سنترا. كان الليمون والملح والزيت وخمرة مالفوازي تعني كيانها. كان يستطيع، في غداء يجمع أثني عشر شخصاً، أن يستذكر «سنترا» الخضراء و «مخلوقتها» الصغيرة من غير أن يلحظ أحد ذلك، فيما هو يلعب بحبتي ملح يديرها بين الابهام والسبابة. وكان أثرها يغيب، أكثر ما يغيب، في وجوه النساء وكلماتهن وحركاتهنّ.

كان اتّصاله بها، في الذكرى، يشفيه ويحميه من جميع اللقاءات، ومن النساء، ومنْ الحياة نفسها. ولكن في اللحظات السعيدة سعادة خاصة، أمام غياب الشمس فوق البحر، كانت تحدث معجزة حقيقية لا تفسّر ولا توصف: كانت رابية

« سنترا » الخضراء تصبح نور السماء اللامتناهي، وكانت مسيرته العرجاء تصبح طيراناً طويلاً صامتاً، وذلك اللقاء الشهوانيّ المحموم فتحاً فكرياً محضاً بلا وعي مؤلم ولا حدود.

دام ذلك قرابة عام. ثم بدأت « المخلوقة الصغيرة » تمحّي وتشحب كالسراب، كحلم صباحي، وفقدت شيئاً فشيئاً سلطتها. وكان بايرون يُحسّ نفسه مهجوراً، يائساً، بلا قوة. لقد حمله النهر الرديء من جديد ومضى به وهو ينحدر في مجرى الحياة. ولقد عرف من جديد هذه اللقاءات وتلك الصدمات التي يعقبها التقزّز كأنه ظلّها. وكان ذلك اشد قسوة وإيلاماً من قبل « سنترا ». ذلك أنه كان يخيل إليه الآن أن قوانين الحياة القاسية كانت تمدّ سلطتها الفريدة حتى إلى مجالات الحلم، من غير أن يستطيع أحد أن يفلت منها.

أنتَ ابتداءٌ وأنتَ انتهاء!

تَعْرِفُ الآنَ كُلَّ العَواطِفِ،
- تعرف كُلَّ لُغاتِ العَواطِفِ -
لكنَّ واحدةً أَوْصَدَتْ بابَ قلعتها،
فَاقْطَعِ اليَمَّ عَوْماً إليها.
سَفينَتُكَ اخْتَرَقَتْ بِسَجائر كنتَ تُكَدِّسُها في الزوايا،
وكنتَ تُعَلِّقُ أَوْسِمَةَ النَّصْرِ في معطفيكَ،
فَقُلْ لي: أَهَذا هو النَّصْرُ؟!
ها قَدْ خَرَجْتَ من الحَرْبِ مِن غير مُهْرٍ:
فَهَلْ تَعْلَمُ اليومَ أَنَّ لِكُلِّ الفوارسِ خَيْلاً
تَدُكُّ عُبابَ الشوارعِ؟
يا طارِقَ البابِ، أَنتَ ابتداءٌ..
وأنتَ انتهاءٌ..
سدىً لا تزال تُراوغُ ذاتكَ
فَاخْتَرْ طريقَ الجحيم فَما أنتَ كَالْهَوْلاء.

وجدة (المغرب)

محمد علي الرباوي